البحر والطبيعة والعمران

(قصد الشاعر الكبير حافظ بك ابراهيم ايطاليا في الصيف الماضي ترويحاً للنفس واهتماماً بدرس اساليب العمران في الممالك الاوربية ونظم في ذلك قصيدة عصماء اخترنا منها الابيات التالية وفيها وصف بليغ لنوء اصاب السفينة التي اقلتهُ ولما شاهدهُ في ايطاليا من آثار الحضارة واخلاق السكان وما بدا لهُ في تعليل ما شاهد فاجاد وافاد)

عاصفٌ يرمي وبحرٌ يُثير انا بالله منها مستجيرُ
وكأن الامواجَ وهي تَوالى مُخنَّقات اشجانُ نفسٍ تثورُ
ازبدت ثم جرجرت ثم ثارت ثم فارت كما تفور القدورُ
ثم اوفت مثل الجبال على الفُلْك وللفُلْك عزمةٌ لا تخورُ
تترامى بجؤجؤٍ لا يبالي أمياهٌ تحوطهُ أم صخورُ
أزعج البحرُ جانبيها من الشدّ فجنبٌ يعلو وجنب يغورُ
وهو آناً ينحطّ من علوّ كالسّيل وآناً يحوطها منهُ سُورُ
وهي تزورُّ كالجواد اذا ما ساقهُ للطعان نَدْبٌ جسورُ
وعليها نفوسنا خائراتٌ جازعات كادت تُعَاعاً تطيرُ
في ثنايا الامواج والرّبد المندوف لاحت اكفاننا والقبورُ
مرّ يوم وبعض يوم علينا والمنايا الى النفوس تشيرُ
ثم طافت عناية الله بالفُلك فزالت عنّا ثقلُ الشرورُ
ملكت دفةَ النجاة يدُ الله فسبحان من اليهِ المصيرُ
أمر البحر فاستكان وامسى منهُ ذاك العباب وهو حصيرُ
ايها البحر لا يغرّنك حولٌ والتاع فانت خلق صغيرُ
انما انت ذرةٌ قد حوتها ذرةٌ في قضاء ربي تدورُ
انما انت قطرةٌ في إناء ليس يدري مداهُ الا القديرُ

***

إيه (أسبريا) تَدثّك الجواري مُنْشآتٍ كانهن القصورُ
يا عروس البحار إنك أهل أن تحلّيكِ بالجمان البحورُ

فالسعي اليوم من ثنائي عقداً تشتهيه من الحسان النحورُ

***

أيه ايطاليا عدتك العوادي وتنحّى عن ساكنيك الثبورُ
فيك يا مهبط الجمال فنون ليس فيها عن الكمال قصورُ
ودمى جمّع المحاسن فيها صنع الكفّ عبقريٌّ شهيرُ
قد أقيمت من الجماد ولكن من معاني الحياة فيها سطورُ
فهي تبدو مثل الملائك يكسوها جمالٌ على جناحيه نورُ
امرتْ بالسكوت من جانب الحقّ بدنيا فيها الاحاديث زورُ

***

أرضهم جنّةٌ وحورٌ وولدان كما تشتهي وملكٌ كبيرُ
تحتها والعياذ بالله نار وعذابٌ ونكرٌ ونكيرُ
ان يوماً كيوم (ردجو ومسّينا وكالابريا) ليومٌ عسيرُ
ساعة منهُ تهلك الحرث والنسل ونحو ما سطرتهُ الدهورُ
ذاك (فيزوف) قائماً يتلظّى قد تعالى شهيقهُ والزفيرُ
ينذر القوم بالرحيل ولكن ليس يُغني مع القضاء النذيرُ
وكذاك الاوطان مهما تجنّت ليس للحرّ عن حماها مسيرُ

***

شمسهم غادةٌ عليها حجاب فهي شرقيّةٌ حوتها الخدورُ
شمسنا غادةٌ أبتْ أن تواري فهي غربية جلاها السفورُ
جوّهم في تقلّب واختلاف غير أن الثبات فيهم وفيرُ
جوّنا أثبت الجواء ولكن ليس فينا على الثبات صبورُ
ولديهم من الفنون لُباب ولدينا من الفنون قشورُ
أنكر الوقف شرعهم فلهذا كل ربع بارضهم معمورُ
ليس فيها مستنفعٌ او جدارٌ قد تداعى أو مسكن مهجورُ
كل شبر فيها عليه بناء مشمخرٌ او روضة او غديرُ
قسّموا الوقت بين لهو وجدّ في مدى اليوم قسمةً لا تجورُ
كلهم كادح بكورٌ الى الرزق ولاهٍ اذا دعاه السرورُ

لا ترى في الصباح لاعب نرد حولهُ للرهان جمٌّ غفيرُ
لا ولا باهلاً سليم النواحي للقهاوي ، رواحهُ والبكورُ
لم يحل بينهم وبين الملاهي او شؤون الحياة جوٌّ مطيرُ
لا يبالون بالطبيعة حنّت ام عجنّت ام احتواها الثغورُ
عصفت فوقهم رياحٌ عواتٍ ام أجازت بهم صباً ام دبورُ
قد أعدوا لحادثات الليالي عدةً لا يجوزها التقديرُ
فضّروا الصخر في رؤوس الرواسي ولدينا في موطن الخصب بورُ
قد وقفنا عند القديم وساروا حيث تسري الى الكمال البدورُ
والجواري في النيل من عهد نوح لم يقدّر لصنعها تغييرُ
ولع القوم بالنظافة حتى جنّ فيها غنيهم والفقيرُ
فاذا سرتُ في الطريق نهاراً خلتُ أني على المزابل أسيرُ
أفرط القوم في النظام وعندي أن فرط النظام أسرٌ ونيرُ
ولذيذ الحياة ما كان فوضى ليس فيها مسيطر او أميرُ
فاذا ما سألتني قلت عنهم أمّةٌ حرّةٌ وفرد أسيرُ
ذاك رأيي وهل أشاركك فيه إنهُ قول شاعر لا يضيرُ
في جبال (التيرول) إن أقبل الصيف نعيمٌ وان مضى زمهريرُ
أذكرتني (١) ما قالهُ عربيٌّ طارقيٌّ (٢) أمسى احتواه (شلير)
حل ترك الصلاة في هذه الارض وحلّت لنا عليها الخمورُ
ان صدر البعير احنى علينا من (شلير) وأين منا البعير

***

قد بلوت الحياة في الشرق والغرب فما في الحياة أمر يسيرُ
من ثواء فيه الملال لزامٌ أو رحيل فيه العناء كثيرُ

حافظ ابراهيم

(١) لما فتحت العرب الاندلس وبلغت جبل شلير وجدوا فيه من البرد فقال احدهم
يحل لنا ترك الصلاة بارضهم وشرب الخيا وهو شيء محرم
فراراً الى نار الجحيم فانها اخف علينا من شلير وارحم
فالى هذه النكتة التاريخية يشير حافظ بك ابراهيم اليوم
(٢) نسبة الى طارق بن زياد فاتح الاندلس